يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا ﴿١٣﴾ وَحَنَانٗا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةٗۖ وَكَانَ تَقِيّٗا ﴿١٤﴾

شرح الكلمات:

حنانًا: الحنـــانُ هو الرحمةُ؛ الرزقُ؛ البركةُ؛ الهيبةُ؛ الوقارُ ورقّةُ القلب (الأقرب). والمراد من الحنان هنا رقّة القلب.

التفسير: نستنبط من هذا أن التوراة وصُحفها لم تكن قد أصبحت منسوخة حتى ذلك الوقت. ذلك لأن يحيى عليه السلام لم ينـــزل عليه أي كتاب جديد بحسب عقيدة المسلمين والمسيحيين أيضًا. فالمراد من الكتاب الذي أُمر يحيى بأخذه بقوة هو التوراة.

هذا، وإن المسيح عليه السلام أيضًا قد تعمَّد على يد يوحنا (يحيى)، أي اعترف بكونه تابعًا لدينه. وهذا يعني أن المسيح أيضًا لم يأت بدين جديد. ذلك لأن الله تعالى إذا كان قد بعث نبيين في زمن واحد، وإلى شعب واحد، وكان أحدهما تلميذًا للآخر، فكيف يمكن أن يكون أحدهما آخذًا بالتوراة بقوة، ويكون الآخر ناسخًا لها بكتاب جديد يأتي به. إذن فإن قوله تعالى ﴿يا يحيى خُذِ الكتاب بقوة﴾ إشارةٌ إلى أن الشرع الموسوي ما كان ليُنسَخ عاجلاً على يد المسيح، إذ لو كان نسخه مقدّرًا على يد المسيح لما أوصى الله يحيى بهذه الشدة ﴿يا يحيى خُذِ الكتاب بقوة﴾. إن هذه الكلمات تؤكد أنه كان على بني إسرائيل أن يعملوا بشرع التوراة نفسه. لو كانت التوراة لتُنسخ عاجلاً لما أُمروا بالعمل بها بهذا التأكيد والشدة. كلا، إن مثل هذه الكلمات لا تقال للعمل المؤقت، وإنما تقال إذا كان ذلك الشرع ما زال واجب العمل به لفترة من الزمن.

أما قول الله تعالى ﴿وآتيناه الحكمَ صبيًّا﴾ فيعني أن الله تعالى قد شرّفه بقربه وهو صغير. بمعنى أن الوحي بدأ ينـــزل عليه وهو لا يزال صغيرًا في أعين القوم، بدليل

قولنا: إن فلانًا وليد الأمس، إذ لا يعنون بذلك أنه طفل رضيع. ثم إن الصبي يعني الشاب أيضًا.*

الغريب أنه قد جاء في ذلك الزمن نبيّان الواحدُ بعد الآخر، وقد استخدم القرآن لكل واحد منهما كلمة ﴿صبيًّا﴾. يخبرنا الله تعالى أن أمّ عيسى عليه السلام لما جاءت به قومَها قال لها اليهود ﴿كيف نُكلّم مَن كان في المهد صبيًّا﴾(مريم: ٣٠). وهذا يعني أن الناس سموا عيسى صبيًّا، وأما يحيى فسماه الله صبيًّا. وذلك ليشير إلى أنه إذا كان كلام عيسى عليه السلام في صغره معجزة فإن يحيى أيضًا كان موصوفًا بهذا الوصف حيث قال الله عنه ﴿وآتيناه الحُكم صبيًّا﴾.

بل هناك فرق بينهما وهو أن الذين سمّوا المسيح عليه السلام صبيًّا هم اليهود، ولكن الله تعالى نفسه قد سمى يحيى صبيًّا. فإذا كان المسيحيون يعظّمون المسيح بسبب كلمة قالها أعداؤه في حقه، فلم لا يعظّمون يحيى بسبب الكلمة نفسها خاصة وإن الله تعالى هو الذي قالها في حقه لا الأعداء. لا شك أن الله تعالى قد قال عن المسيح ﴿يكلّم الناسَ في المهد وكَهْلاً﴾(آل عمران: ٤٧) ، ولكن فيما يتعلق بتسميته ﴿صبيًّا﴾ فلم يطلقها على عيسى إلا الأعداء.

وكما أن قوله تعالى ﴿وآتيناه الحُكْمَ صبيًّا﴾ يمثّل لومًا للمسيحيين بأنهم إذا كانوا يعظّمون المسيح لكونه غالبًا على أعدائه منذ صغره فلم لا يؤتون يحيى العظمة نفسها وقد حظي هو الآخر بقرب الله تعالى منذ الصغر، كذلك قد عُقدت في قوله تعالى ﴿وحنانًا من لَدُنَّا وَزَكَاةً وكان تقيًّا﴾ المقارنة بين المسيح ويحيى نظرًا إلى تعليم المسيح. يركّز المسيحيون على أن المسيح علّم الرفق والحكم والعفو، فيرد الله تعالى عليهم بأن يحيى أيضًا كان متصفًا برقة القلب والرفق والحلم. فإذا كان الرفق والحلم سببًا لعظمة عيسى فإن يحيى أيضًا كان عظيمًا مثله لاتصافه بالصفة نفسها.

إذًا فالله تعالى قد فنّد في هذه السورة مزاعم المسيحيين بذكر كل الأمور التي يستدلون بها على أفضلية المسيح. وإليك بيانها:

---

* ورد في أقرب الموارد: الصبي: دون الفتى. وفي الصحاح: الصبي: الغلام *(المترجم)*.

أولاً: يقال أن المسيح كان حليم القلب ورءوفًا ومحبًّا للجميع. فردّ الله تعالى عليهم بقوله إن يحيى أيضًا كان حليم القلب ورءوفًا ومحبًّا للجميع.

ثانيًا: يقال أن المسيح قد أتى بشرع جديد، فيقول الله تعالى لقد أمرنا يحيى هو الآخر بأخذ الكتاب بقوة.

ثالثًا: يقال أن المسيح تكلم وهو صغير، وهذا دليل على أفضليته، فيقول الله تعالى إننا جعلنا يحيى مأمورًا من عندنا وهو صغير، وبعثناه إلى الناس.

رابعًا: يقال أن المسيح كان بريئًا من الذنوب، فيقول الله تعالى إن يحيى أيضًا كان مبرأً من الذنوب حيث قال ﴿وزكاةً﴾.. أي منحناه الطهر والقدس.

لقد وصف الله تعالى يحيى هنا بكل الخصوصيات التي تعزى إلى المسيح ليقيم الحجة على المسيحيين، وقال إذا كنتم تفضلون المسيح على الأنبياء الآخرين بسبب هذه الأمور فلم لا تؤمنون بأفضلية يحيى الذي كان هو الآخر مخصوصًا بها.

وبعد أن وصف الله تعالى يحيى بأنه آتاه ﴿زكاةً﴾ قال الآن ﴿وكان تقيًّا﴾.. أي كان صاحب تقوى وورع. علمًا أننا في لغتنا الأردية عندما نقرأ كلمات مترادفة نظن أنها لا تضيف أي مفهوم جديد، وإنما جيء بها من أجل تحبير الكلام وتزيينه فقط. ولكن الأمر ليس كذلك في اللغة العربية، بل إن كل كلمة فيها تنطوي على دلالة معينة. فقوله تعالى آتيناه ﴿زكاة﴾ يعني غير ما يعنيه قوله تعالى ﴿وكان تقيًّا﴾. ذلك أن الزكاة في العربية تعني إزالة العيوب الباطنة، أما التقوى فيعني إزالة العيوب الخارجية. فالآية تعني أننا منحناه من عندنا الحلم والرفق، وجعلنا أفكاره المختلجة بداخله طاهرة، كما وهبنا لـــه القوة ضد المساوئ التي تهاجم من الخارج.

وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٥﴾

شرح الكلمات:

بَرًّا: بَرَّ في يمينه: صدَق. وبَرَّ والدَه: أحسنَ الطاعةَ إليه ورفَق به وتَحرَّى مَحابَّه وتَوقَّى مَكارِهَه، فهو بَرٌّ به وبارٌّ (الأقرب).

وهذا يعني أن الإنسان إذا حاول إرضاء والده فتخلَّقَ في ظاهره وباطنه بكل الأخلاق التي تسرّ أباه، وترك كل المساوئ التي يكرهها فقد صار بَرًّا وبارًّا. غير أن البَرّ أبلغ وأقوى من البارّ.

جبّارًا: جبَر العظمَ: أصلحَه من كَسْر؛ وجبَر العظمُ بنفسه: صلُح بعد الكسر. وجبَر الفقيرَ: أغناه. وجبَر فلانًا على الأمر: أكرهَه (الأقرب). وهذا يعني أن الجبر يعني الخير والإصلاح من جهة، ومن جهة أخرى ينطوي على معنى القسر والظلم.

عصيًّا: العصيّ هو العاصي أي الخارج عن الطاعة والمخالف والمعاند (الأقرب).

التفسير: لقد أخبر الله تعالى بقوله ﴿وبَرًّا بوالديه﴾ أن يحيى كان مطيعًا كاملاً لوالديه. كان متخلقًا بالأخلاق التي يحبّاها، ومتجنبًا لجميع المساوئ التي كانا يكرهانها.

ثم قال الله تعالى ﴿ولم يكن جبّارًا عصيًّا﴾. لقد وصف الله تعالى يحيى بهذه الصفات خاصة ليفنّد مزاعم النصارى الذين يقدمون بكل زهو وتباه التعليمَ التالي للمسيح: "مَن لطَمك على خدّك الأيمن فحَوِّلْ لـــه الآخرَ أيضًا" (متى ٥: ٣٩). فيردّ الله تعالى عليهم ويقول إن يحيى أيضًا لم يكن جبّارًا، وأنه هو الآخر قد دعا الناس إلى ترك الظلم والعدوان.

ثم إن النصارى يزعمون أن من أكبر مزايا المسيح قوله: "أعطُوا إذًا ما لقيصرَ لقيصر، وما لله لله" (متى ٢٢: ٢١). فيرد الله ﷻ عليهم ويقول إن يحيى أيضًا لم يكن عصيًّا. إنه هو الآخر أمر الناس ألا يرتكبوا العصيان، بل عليهم أن يعطوا لقيصر ما لقيصر، ولله ما لله ﷻ.

إذن فقد وهب الله تعالى ليحيى كل المحاسن التي تُعزى إلى المسيح عليه السلام. لا شك أن المسيح كان أعظم درجة من يحيى عليهما السلام، ولكن الحديث هنا لا يدور عن الدرجة والمقام، وإنما يخبر الله تعالى هنا أن المسيح لم تكن فيه خصوصية خارقة للعادة. ذلك لأن المسيحيين يبالغون جدًّا في تعظيم المسيح عليه السلام زاعمين أنه قد وُجدت فيه صفات خارقة، ولذلك رد الله تعالى على مزاعمهم هذه، مؤكدًا أن

يحيى أيضًا كان متحليًّا بتلك المزايا والمحاسن؛ فإذا كنتم تبالغون في تعظيم المسيح بسببها فلم لا تفعلون ذلك بحق يحيى أيضًا.

وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾

التفسير: يظن البعض أن السلام المشار إليه في هذه الآية هو السلام المادي، ولأن السلام كان مقدرًا ليحيى عليه السلام يوم موته أيضًا فثبت أنه لم يُستشهد.

ولكني أقول إذا كان السلام يعني سلامته من القتل، فما هو المراد إذن من السلام عليه يوم القيامة؟ فهل سيحاول عدو من أعدائه اغتياله يوم القيامة حتى وعده الله بالسلام في ذلك اليوم أيضًا؟ إذا كان هذا هو مفهوم السلام فسيكون معنى الآية كلها كالآتي: أن يحيى سيسلَم من القتل يوم يولد، وسيسلَم من القتل يوم يموت، وسيسلم من القتل حين يُبعث حيًّا يوم القيامة!

الحق أن الله تعالى قد أشار هنا إلى ثلاثة أدوار مختلفة، ولكن أصحاب الرأي المذكور أعلاه قد أخطأوا في فهم هذه الآية. الواقع أن حياة الإنسان ثلاث. فتبدأ الحياة الأولى بولادة الإنسان وتنتهي بموته. وأما الثانية فتبدأ بموت الإنسان وتستمر إلى يوم القيامة، وتسمى الحياة البرزخية. وأما الثالثة التي تُسمَّى يوم البعث في القرآن الكريم، فتبدأ بدخول أهل الجنة الجنةَ وأهل النار النارَ بشكل كامل. فالولادة بداية للحياة الدنيا، والموت بداية للحياة البرزخية، ويوم القيامة بداية للحياة الآخرة. ويخبرنا الله تعالى هنا أن سلامنا سيشمل يحيى في كل هذه الفترات من الحياة؛ فسينـــزل عليه السلام منا عند ولادته، وسيظل متمتعًا بها في حياته الدنيا كلها. ثم يشمله السلام منا حين يموت، وسيظل في سلام خلال حياته البرزخية. ثم يكون في سلام يوم القيامة، وسيظل موردًا لفضل الله ورحمته في حياته الآخرة.

وباختصار فلا ذكر للقتل في هذه الآية، وإنما يدور الحديث هنا عن الأنواع الثلاثة من الحياة، حيث أخبر الله تعالى أن يحيى سيكون موردًا لسلام الله تعالى في كل فترة من فترات حياته الثلاث.

بيد أن هذا السلام الإلهي ليس خاصًّا بعيسى أو بيحيى عليهما السلام، بل إن جميع المؤمنين يتمتعون به. يقول الله تعالى للنبي ﷺ: ﴿وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقُلْ سلام عليكم كتَب ربُّكم على نفسه الرحمةَ﴾(الأنعام: ٥٥). وبالرغم من أن هذا السلام على المؤمنين كان من عند الله تعالى، ومع ذلك قد استُشهد كثير منهم.

ثم يقول الله تعالى عن المؤمنين جميعًا ﴿الذين تتوفاهم الملائكة طيّبين يقولون سلام عليكم ادخُلوا الجنّةَ بما كنتم تعمَلون﴾(النحل: ٣٣).. أي الذين تقبض الملائكة أرواحهم وهم طيبون أطهار فإن الملائكة تقرأ عليهم السلام وتدعوهم إلى الدخول في الجنة. والظاهر أن الملائكة تقبض أرواح الناس بطرق شتى، منها الاستشهاد. فلو كان السلام يعني السلامة من القتل، أفليس عجيبًا أن يكون العدو يقتلهم والملائكة تقول لهم سلام عليكم، سلام عليكم! أي كانت تقول على عكس ما يجري معهم.

ثم ورد في آية أخرى ﴿والسّلامُ على مَنِ اتّبعَ الهدى﴾(طه: ٤٨). فإذا كان المراد من السلام العصمة من القتل فيجب بحسب هذه الآية أن لا يُقتَل أي مؤمن.

ثم يقول الله تعالى عن المؤمنين ﴿يهدي به اللهُ مَن اتّبعَ رضوانَه سُبُلَ السلام﴾(المائدة: ١٧). علمًا أن ضمير الغائب في ﴿به﴾ عائد إلى القرآن الكريم. فلو كان السلام بمعنى العصمة من القتل بيد الأعداء لكان مفهوم هذه الآية أن الله تعالى يمنح المؤمنين حياة لا يُقتلون فيها بيد الأعداء أبدًا. وهذا غلط بداهةً.

الحق أن لكلمة السلام مفاهيم واسعة. لا شك أنها تعني تارةً العصمة من القتل بيد العدو أيضًا، ولكنها تعني السلامة من المرض حينًا؛ وتعني الحماية من الفشل حينًا آخر. إذن فلا يصح أبدًا تحديد مفهوم لكلمة ذات مدلولات عديدة بغير قرينة قوية ولاسيما إذا كان ذلك المفهوم مخالفًا لوقائع التاريخ.

فثبت أن السلام هنا ليس سلامًا ماديًّا، إذ لا يمكن في هذه الحالة تفسير السلام وقت الموت، لأن الإنسان لا يموت إلا جراء مرض أو حادث، فأين السلام إذن؟ مما يدل دلالة واضحة أن السلام هنا لا يعني السلام المادي، وإنما السلام الروحاني.

والمراد من السلام على يحيى يوم ولادته أنه سيولد بريئًا من كل النقائص العقلية والنفسية، والمراد من السلام عليه يوم موته أنه سيظل مبرَّأً من جميع الأمراض الروحانية، وأن الله سيشمله بفضله ورحمته أيضًا يوم يُبعث حيًّا.

لقد جاءت هذه الآية أيضًا لإبطال خصوصية تُعزى إلى المسيح عليه السلام. إذ يزعم البعض أنه لم يسلَم من مسّ الشيطان أحد من البشر إلا عيسى وأمه. وهذا لم يقل به المسيحيون بل قاله المسلمون منّةً على المسيحيين (تفسير ابن كثير: قوله تعالى وإني أُعيذها بك وذريّتَها من الشيطان الرجيم). فكان الله تعالى يعلم أنه سيأتي على الناس زمان سيقول فيه المسلمون أن المسيح معصوم من مس الشيطان، وهذه خصوصية ينفرد بها المسيح وحده؛ فرد الله سبحانه وتعالى على زعمهم فقال عن يحيى عليه السلام ﴿وسلام عليه يوم وُلد﴾.. أي لقد كان يحيى تحت ظل سلام الله تعالى منذ يوم ولادته. فإذا كان الشيطان يمس كل إنسان عند ولادته فكيف يمكن أن يقول أحد: كم كان مليئًا بالسلام والرحمة اليومُ الذي وُلد فيه يحيى ومَسَّه فيه الشيطان! إن كل عاقل يدرك أن الشيطان ما دام يمسّ كل واحد من البشر عند ولادته فلا يمكن القول عن يحيى أن يوم ولادته كان يوم سلام وبركة. إنما يصح هذا القول إذا كان الشيطان لم يمسه عند ولادته.

لقد وصف الله تعالى هنا يحيى عليه السلام بكل المحاسن والصفات التي وُجدت في المسيح عند المسيحيين، ذلك لأنه كان من المقدر للمسلمين أن يعرضوا على النصارى كل ما تحلى به رسولنا صلى الله عليه وسلم من أخلاق سامية وكمالات عالية، وكان لا بد أن يرفضها المسيحيون قائلين أن المحاسن كلها إنما اجتمعت في المسيح فقط؛ فنبه الله عز وجل المسلمين بهذه الآيات إلى أن يدرسوا أحوال يوحنا في الإنجيل، فهو موصوف بكل تلك المحاسن التي تُنسب إلى المسيح، بل أكثر منها. وقد بيّنتُ من قبل أن الإنجيل قد سجل قول المسيح عن يوحنا: "أقول لكم إنه بين المولودين من النساء ليس نبي أعظمَ من يوحنا المعمدان" (لوقا ٧: ٢٨). كما أن هناك نبوءات عديدة أخرى على لسان الأنبياء السابقين في صالح يوحنا. إذًا فليس هناك خصوصية للمسيح حتى يُتخذ إلهًا أو ابن إله. إننا لا ننكر أن المسيح أعظم من

يوحنا، ولكن الزعم أن المسيح اتصف بصفات فريدة خارقة فباطل تمامًا بحسب الإنجيل أيضًا. بل قد ورد في الإنجيل عن يوحنا: "لأنه يكون عظيمًا أمام الرب، وخمرًا ومسكرًا لا يشرب" (لوقا ١: ١٥)، في حين لم يكن المسيح يشرب الخمر فحسب، بل صنع الخمر كمعجزة لـــه (يوحنا ٢: ١-١١).

ثم إذا كان المسيح يصوم ويقوم بعبادات أخرى فإن يوحنا أيضًا كان يفعل مثله.

وباختصار فإن الله تعالى قد نبّه المسلمين هنا أن عليهم لدى الجدال مع أهل الكتاب أن ينظروا في أحوال يوحنا، وسيجدون أن الأمور التي تُعزى إلى المسيح توجد كلها في يوحنا أيضًا. فما خصوصية المسيح في ذلك إذن؟ فبدأً من قوله ﴿يا يحيى خُذِ الكتاب بقوة﴾ حتى آخر هذه السورة قد ساق الله تعالى البراهين على بطلان المسيحية منبهًا المسلمين أنهم حين يذكرون أخلاق نبيهم ﷺ العالية فلن يقبلها المسيحيون. وها نحن نخبرهم بطريق الجدال مع هؤلاء القوم. عليهم أن يقرءوا في الإنجيل أحوال يوحنا، وسيجدون فيها كل ما يعزوه المسيحيون إلى المسيح. فليقولوا للمسيحيين: ليس للمسيح خصوصية فيما تذكرون حتى تؤلهوه أو تتخذوه ابنًا لله تعالى.

وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا ١٧

شرح الكلمات:

انتبذتْ: يقال انتبذَ: اعتزلَ وتنحَّى ناحيةً (الأقرب).

شرقيًّا: الشرقيّ: المنسوبُ إلى الشرق، وكلُّ مكان في جهة الشرق، وكلُّ ما اتجه نحو الشرق (الأقرب).

التفسير: الذكر هنا جاء بمعنى السرد والحكاية أو التذكر، فلو كان المراد من الكتاب هنا القرآن الكريم فستعني هذه الآية: اسْرُدْ قصة مريم في القرآن الكريم؛ أما إذا كان الكتاب إشارة إلى الكتاب المقدس فالمعنى استحضرْ في ذهنك قصة مريم، أو اسردْها، كما وردت في الكتاب المقدس. ولكن الظاهر أن كثيرًا من الأباطيل قد

دُسّت في الكتاب المقدس فيكون معنى الآية انظر فيما ورد فيه من أحوال مريم، واقرأْ أيضًا بيان القرآن الكريم في شأنها، ثم قارِنْ بينهما حتى تعلم أي الكتابين عرَض أحوال مريم بما يليق بمكانتها.

لقد استهلّ الله تعالى هذه السورة بقصة زكريا وذكَر خلالها ولادة يحيى لأن الأنباء كانت تؤكد أن ولادته تكون إرهاصًا للمسيح، وما كان المسيح ليظهر في الدنيا ما لم يظهر قبله الشخص الذي يكون بروزًا ومَظهرًا لإيليّا. والآن ذكر الله تعالى قصة مريم بعد قصة يحيى، ذلك لأن ظهور يحيى كما كان ضروريًّا قبل المسيح لكونه آية وعلامة على ظهوره، كذلك كانت ولادة المسيح من غير أب آيةً عظيمة لليهود. فقد حذرهم الله بها أن النبوة ستنقطع الآن عن بني إسرائيل، وأن هذه النعمة ستُحوَّل الآن إلى إخوانهم الآخرين.

لقد سمعنا من سيدنا المسيح الموعود عليه السلام عشرات المرات أن ولادة المسيح عليه السلام من غير أب كانت إشارةً من الله تعالى لليهود أنه قد أعرض عنهم وأن النبوة ستنتقل الآن عن بني إسرائيل إلى أمة أخرى بسبب معاصيهم. ذلك أن نَسَب المرء إنما يُعرف من قبل أبيه، فخلق الله المسيحَ من غير أب لينبه اليهودَ أنه لم يبق بينهم ذَكَرٌ يصلح أحد من أولاده للنبوة. ومن أجل ذلك فإن الذي نجعله الآن نبيًّا مولود من غير أب، وهو إسرائيلي من قبل الأم فقط. ولكن النبي القادم لن يكون إسرائيليا حتى من قبل الأم أيضًا لأن الله تعالى قد قرر أن يقطع كل صِلاته عن بني إسرائيل.

لقد بين سيدنا المسيح الموعود عليه السلام هذا الأمر مرارًا وتكراراً في كتبه منها مثلاً كتابه "مواهب الرحمن" وغيره (انظر مواهب الرحمن ص ٢٩٠-٢٩١). وكما قلت فقد سمعنا ذلك من لسانه عليه السلام مباشرة عشرات المرات، حيث بيّن أن مريم كانت علامة تحذير رباني أنه قد حان أن تنتقل النبوة من بني إسرائيل إلى بني إسماعيل، وآن الأوان لأن تتحقق نبوءة موسى التي قال فيها: "يقيم لك الربُّ إلـــهُك نبيًّا مِن وسطك مِن إخوتك (أي من بني إسماعيل) مثلي" (التثنية ١٨: ١٥).

فلأن السيدة مريم أيضًا كانت آيةً من آيات الله تعالى فعلينا أن نفحص جيدًا لنعرف ماذا قال القرآن والكتاب المقدس في وصفها.

إن والدة عيسى عليه السلام تسمى في اللغة العربية مريم، ونُطْقُها في العِبرية مارية ومريم وميريوم. إن الإنجيل كلما ذكر أم المسيح استخدم كلمة مريم، ولكنه حين ذكر النساء الأخريات سماهن حينًا مريم، ومارية حينًا آخر. فهذه هي الأسماء التي كانت رائجة في ذلك العصر. ويبدو أنهم قد استخدموا لأم المسيح كلمة مريم فقط تعظيمًا للمسيح عليه السلام.

نعثر على اسم "مريم" أول مرة في التوراة حيث أُطلق هذا الاسم على أخت موسى (الخروج ١٥: ٢٠). والأغلب أن أخت موسى هذه هي التي ذهبت تمشي وراءه تبصره عن كثب بعد أن قذفتْه أمُّه في النهر كما ورد في القرآن الكريم (القصص: ١٢). ولكن اسمها في التوراة هو مِريم لا مَريم. ونجد هذا الاسم بعد ذلك في العهد الجديد، حيث جاء نطقها مَريم (متى ١: ١٨).

وقد اختلفوا في معنى كلمة مريم. فمن المعاني التي ذكروها: البحر المالح، نجم البحر، الملكة، ختمُ السيّد، أستاذ البحر؛ مِر البحر. علمًا أن المر (Myrrh) نوع من الصمغ يُستعمل في بعض الأدوية.

ويقول العلماء الذين اهتموا بتحقيق اللغة العبرية إن سبب اختلافهم في بيان معنى مريم يرجع إلى وجود كلمات مشابهة لمريم في العربية والفارسية وبعض اللغات الأخرى التي استنتج منها الناس هذه المعاني المختلفة. خذوا مثلاً "مر البحر"، فإن سبب ذكرهم هذا المعنى هو أن التوراة قد ذكرت اسم أخت موسى "مِريم"، و"المِر" نوع من الصمغ، و"اليم" هو البحر في اللغة العربية؛ فقالوا إن "مريم" يعني مِر البحر. وقد استنتجوا المعاني الأخرى من اللغة الفارسية وبعض اللغات الأخرى.

ولكن الباحثين الذين قاموا ببحث متكامل للغة العبرية يقولون إن كلمة مريم تعني الجموح أو السمين. وكلا المعنيين متشابهان، لأن الولد الذي يكون سمينًا هو الذي يكون جموحًا صعب المراس عادة. ويُظن أن المولود الذي كانت ولادته صعبة لكونه ضخمًا كان يُسمى مريم.

وقال البعض الآخر إن معيار الجمال يختلف من بلد إلى آخر، فإن الشعوب السامية، كاليهود والعرب، تعتبر الاكتناز علامة الجمال؛ ومن أجل ذلك نجد

صاحب قصيدة "بانتْ سُعادُ" يقول في وصف حبيبته: "هَيفاءُ مُقبِلةً عَجْزاءُ مدبِرةً".. أي إذا نظرتَ إليها قادمةً وجدتَها ضامرةَ البطن دقيقةَ الخصرِ، وإذا رأيتَها وهي راجعة بدَتْ كبيرةَ العجيزة. فثبت أن الاكتناز كان معيار الجمال عندهم، ومن أجل ذلك سموا الطفلة الجميلة السمينة مريم.

غير أن بعض الباحثين يرون أنهم كانوا يعطون هذا الاسم بسبب الجمال فقط، لا الاكتنـــاز. والأغلب أنهم قالوا ذلك لأن السيدة مريم لا تبدو مكتنـــزة في الصور الشائعة عند النصارى.

لقد ذكرتُ من قبل أن الإنجيل قد استخدم لفظ مريم أحيانًا، ومارية أحيانًا أخرى، ولكنه كلما ذكر والدة المسيح استخدم لفظ مريم دائمًا. ويبدو أن هذا الاسم كان شائعًا بكثرة في ذلك العصر حيث سُمّيت به نساء كثيرات في الإنجيل.

أحوال مريم:

إن الإنجيل صامتٌ كلية فيما يتعلق بأحوال مريم قبل ولادة المسيح عليه السلام. فكل ما نعلمه من إنجيل متى ١: ١٨ هو أن مريم العذراء لما حملت بالمسيح أراد خطيبها يوسف أن يطلقها، ولكن الملاك نهاه عن ذلك، معتبرًا إياها زوجة ليوسف، وأمره أن يأخذها إلى بيته (متى ١: ١٨-٢٠). ولكن هذا الإنجيل لم يذكر شيئًا عن أحوال مريم قبل هذا الحادث.

أما مرقس فلم يذكر في إنجيله معجزة ولادة المسيح بتاتًا.

أما لوقا فقد سجل في إنجيله معجزة ولادة المسيح، ولكنه لم يبدأ الحديث عن مريم إلا بعد أن بشّرها الملاك بالحمل بالمسيح. فقد ورد فيه أن مريم كانت عذراء، ومخطوبة إلى يوسف، ولكن قبل أن تُزَفّ إليه جاءها الملاك وبشّرها بالحمل فحملت (لوقا ١: ٢٧-٣٥). ولكن لوقا لا يسلط أي ضوء على أحوالها قبل الحمل. إنه صامت كلية عن أحوال والديها وعن صغرها. إن كل ما قاله هو أن مريم كانت من أقارب زوجة زكريا، وكانت تتردد إلى بيتها من حين لآخر.

أما يوحنا فهو صامت تمامًا بهذا الشأن.

أما القرآن الكريم فقد تحدث عن عائلة مريم وعن أمّها أيضًا، كما سجل حدث ولادتها الذي ينطوي على إشارة إلى ولادة المسيح أيضًا (آل عمران: ٣٧). من أجل هذه المعجزة العظيمة كان لزامًا وجود مؤشرات ابتدائية، وإن القرآن الكريم هو الذي ذكر تلك المؤشرات، أما الإنجيل فلم يذكرها أبدًا. يقول الله تعالى في سورة آل عمران إن امرأة من عائلة عمران (أي من عائلة موسى عليه السلام) شعرت في قلبها بأن الدين في انحطاط وفساد، وأن هناك حاجة ماسة إلى الذين يقفون حياتهم لإصلاح الدين، فقررت في نفسها أن الله تعالى لو آتاها ولدًا فستَنذره في سبيله. فقطعت مع ربّها وعدًا بذلك قائلةً رَبِّ تَقبَّلْ مني هذا النذر وبارِكْ فيه. فلما وضعتِ المولود وجدتْ أنه ليس ذَكرًا، بل هي أنثى. فأصيبت بخيبة الأمل، لأن البنت لن تقدر على تحقيق الهدف الذي من أجله نذرت مولودها. فدعتْ ربَّها ثانية في حزن عميق وقالت: رَبِّ ماذا أفعل الآن، فإني قد وضعتُ بنتًا، مع أن الله تعالى كان على علم أن الذَّكَر الذي كانت تتمناه لا يمكن أن يفعل ما ستفعله تلك الأنثى.

الواقع أن الصالحين في ذلك العصر كانوا يشعرون في أنفسهم بالفساد الذي قد استشرى، ولكن ما كانوا يعرفون الموعد الصحيح لزوال ذلك الفساد. كان الناس يرون الفساد المتفشي، وكان محبّو الدين منهم، ذكورًا وإناثًا، متحمسين لإصلاحه. ففكرت النساء أن ينذرن أولادهن لخدمة الدين، ولكن ما يدريهن بالموعد المناسب لإصلاحه. فلو أن الله تعالى استجاب دعاء أم مريم عندئذ لوُلد المسيح قبل الموعد المناسب بعشرين سنة؛ في حين كان لزامًا أن يولد يحيى قبله ليكون إرهاصًا لـــه. لذلك فاستجاب الله دعاءها بطريق آخر، فأعطاها بنتًا ستلد فيما بعد ولدًا عظيمًا بدلاً من أن يهبها ولدًا يخدم الدين. وهكذا استجيب دعاؤها من جهة، ومن جهة أخرى لم يتغير الموعد المقدر من الله تعالى لإصلاح ذلك العصر. فلو أن الله العليم بالظروف استجاب دعاء أم مريم في حينه ما قدر ابنها على القيام بالخدمة الدينية التي كانت تريدها. فوهب لها البنتَ بدل الابن محققًا الأنباء القديمة بأن عذراء ستلد

ابنًا غير عادي يتسبب في نجاة اليهود (إشعياء ٧: ١٤). كما استُجيب دعاء أم مريم أيضًا حيث ولدت بنتُها هذه ابنًا تسبب في نجاة اليهود.

وباختصار فبما أن أم مريم نذرتْ مولودها في سبيل الله تعالى فوضعتها تحت رعاية العلماء والأحبار. ولكن لا لتترهب وتعيش بدون الزواج، وإنما لكي تتعلم منهم الدين. وقد قلتُ ذلك لأن دعاء أم مريم ﴿وإني أُعيذها بك وذريتَها من الشيطان الرجيم﴾(آل عمران: ٣٧) يوضح جليًّا أنها فكرت أنها لو وضعتْ بنتها مريم تحت رعاية العلماء لربّوها تربية دينية جيدة، فتتمكن هي الأخرى من تربية أولادها على ما يرام، فسلّمتها للأحبار والزهّاد العابدين؛ ومع ذلك كانت تريد لِبنتها أن تتزوج فيكون لديها أولاد تربيهم تربية جيدة، والدليل على ذلك هو دعاؤها لمريم ولأولادها أيضًا بأن يحميهم الله تعالى من الشيطان الرجيم.

فاستجاب الله دعاء الأم فكان فضل الله على مريم عظيمًا حيث كفّلها زكريا الحبر، كما تربّت على يد الأحبار الآخرين، وأُولعت بالدين ولعًا كبيرًا، حتى أيقنت في صغرها أن كل ما يناله المرء إنما يناله من عند الله تعالى. وإن يقينها هذا هو الذي أثر في زكريا بشدة، فدعا ربه أن يرزقه ولدًا، فوُلد يحيى. وهكذا تسببت أم عيسى في ولادة النبي الذي كان بدوره إرهاصًا لعيسى، وبالتالي أوجدت الحلَّ لأكبر معضلة واجهت ابنها فيما بعد. ذلك أن صدق دعوى المسيح ما كان ليتحقق إلا بمجيء إيليا، فتسبب تصرفٌ بريء من أم المسيح في ولادة يحيى الذي صار مثيلاً لإيليا.

أما أحوال مريم الأخرى فهي بحسب الإنجيل كالآتي:

جاء يوسف بمريم إلى بيته بعد أن حملت بالمسيح (متى ١: ٢٤)، ولكن لم يذكر الإنجيل أي شيء عن زواجهما. وهذا يوضح أن الخِطبة كانت تُعتبر بمنزلة الزفاف عند اليهود. ولم يمسّ يوسف مريمَ حتى ولادة المسيح. أما بعد ولادته فمَسَّها يوسف، فولدت أولادها الآخرين (متى ١: ٢٥).

وورد أن يسوع كان يكنّ نفورًا تجاه أبويه، وعندما أعلن دعواه لم تؤمن به أمُّه، بل كانت تتعجب منه.

وورد أيضًا: "وفيما هو يكلّم الجموعَ إذا أُمُّه وإخوته وقفوا خارجًا طالبين أن يكلّموه، فقال لـــه واحد: هوذا أمُّك وإخوتك واقفون خارجًا طالبين أن يكلّموك. فأجاب وقال للقائل لـــه: مَن هي أمّي، ومَن هم إخوتي؟ ثم مدَّ يدَه نحو تلاميذه وقال: ها أمّي وإخوتي، لأن من يصنع مشيئةَ أبي الذي في السماوات هو أخي وأختي وأمي" (متى ١٢: ٤٦-٥٠).

فثبت من ذلك أن المسيح لم يعدّ أُمَّه ولا إخوته من المؤمنين. وهذا يعني أن السيدة مريم كانت بحسب الإنجيل منكرة كافرة بالمسيح.

علمًا أن مرقس ولوقا قد أكدا هذا الأمر نفسه في إنجيليهما (مرقس ٣: ٣١-٣٥، ولوقا ٨: ١٩-٢١). أما يوحنا فقد لزم في إنجيله السكوت تجاه ذلك.

أما الإنجيلي متّى فزاد الأمر جلاء حيث أخبر أن الناس كانوا يقولون: أليس أم المسيح وإخوته وأخواته كلهن معنا؟ أي قال اليهود إذا كان المسيح صادقًا فلم لم تؤمن به أمه وإخوته وأخواته؟ فقال لهم المسيح: "ليس نبي بلا كرامة إلا في وطنه وفي بيته" (متى ١٣: ٥٥-٥٧). أي أن ذلّتي بين أهل وطني وعشيرتي ليس دليلاً على كذبي، لأن جميع الأنبياء قد عارضهم أهلهم دائمًا.

وليس هذا فحسب، بل يتضح من إنجيل مرقس أن أقارب المسيح كانوا يعدّونه مجنونًا حيث ورد: "ولما سمع أقرباؤه خرجوا ليُمسكوه لأنهم قالوا إنه مختلّ" (مرقس ٣: ٢١).. أي أنهم بدلاً من أن يؤمنوا به اعتبروه مجنونًا مختلَّ الحواسّ، وأرادوا أن يمسكوه حتى لا يهيم على وجهه هنا وهناك.

لقد اتضح من هذه الأحداث بكل وضوح وجلاء أن مريم وأولادها الآخرين وكذلك يوسف الذي يُدعى أبًا للمسيح، لم يؤمنوا به، فكان يقابلهم بغلظة وجفاء. حتى إن الإنجيل يقول إنه لم يلتفت إلى أمه حين كان معلقًا على الصليب. كان قلب الأم يقاسي آلامًا شديدة، فجاءت لترى ابنها المعلق على الصليب، ولكنه لم يتكلم مع أمه بلطف ومحبة حتى في ذلك الوقت العصيب أيضًا، بل لما رآها واقفة قال لتلميذه "توما" مشيرًا إليها: هذه أمُّك، وقال لها: "يا امرأةُ، هُوَذا ابنكِ" (يوحنا ١٩: ٢٦-٢٧). وكأن المسيح، بحسب الإنجيل، أبغض أمه بغضًا شديدًا جعَله

يخاطبها في ذلك الوقت العصيب أيضًا بقوله: "يا امراةُ" عوضًا عن أن يقول لها: يا أماه، أو يا مريم. وهكذا أدى المسيح واجبه الأخلاقي وأخبر أمه بالمأوى الذي تعيش فيه بعده، كما أوصى تلميذه "توما" بخدمتها وعنايتها، ولكن مشاعره تجاه أمه كانت جارحة لدرجة أنه في تلك الساعة الخطيرة التي كان فيها معلقًا على الصليب لم يبد نحوها أي حب، و لم ينادها قائلاً: يا أمي، بل قال "يا امرأة"!

وقد ازداد المسيح جفاء لأمه، بحسب الإنجيل، لدرجة أنه في إحدى المرات قالت امرأة وقد تأثرت من خطاب المسيح: "طوبى للبطن الذي حمَلك والثديين اللذين رضعتَهما"، فكان من المفروض أن يكظم المسيح غيظه نحو أمه في تلك المناسبة على الأقل، ولكنه لم يملك نفسه حينما سمع ثناءً على أمه من فم هذه السيدة، فقال من فوره: "بل طوبى للذين يسمعون كلام الله ويحفَظونه" (انظر لوقا ١١: ٢٧-٢٨).. أي أن الأم التي حملتني في بطنها ليست مباركة، وأن الثديين اللذين رضعتُهما ليسا مباركين، إنما المبارك من يسمع كلام الله ويعمل به. فيبدو من الإنجيل أن المسيح كان لا يملك نفسه لدى سماع مدح أمه حتى من لسان الآخرين، وبدا وكأنه عدوّ لدود لأمه، ولا يعتبرها مؤمنة!

ولكن القرآن يخبرنا أن المسيح عليه السلام نفسه قال ﴿وبَرًّا بوالدتي﴾(مريم: ٣٣).. أي أن الله تعالى قد جعلني مطيعًا لأمي رءوفًا بها ومحبًّا لها. وللمرء أن يحكم بنفسه أي المصدرين يسرد التاريخ سردًا صحيحًا.

يقول الإنجيل، من ناحية، إن الملاك بشّر مريمَ وقال: "قد وجدتِ نعمةً عند الله، وها أنتِ ستَحبَلين وتلدين ابنًا، وتسمّينه يسوع. هذا يكون عظيمًا وابنَ العليِّ يُدعى" (لوقا ١: ٣٠-٣٢). وبالرغم أن بشارة الملاك هذه كانت مستحيلة بالنظر إلى الظروف الظاهرة، وبالرغم أن الله قد حقق هذا المستحيل، وبالرغم أن مريم قد شاهدت بنفسها هذه الآية العظيمة، إلا أنها ما زالت، بحسب بيان الإنجيل، تعتبر المسيح مجنونًا و لم تؤمن به.

الحق لو أن امرأة رأت في المنام أنها تلد ابنًا، ثم ولدت ابنًا بحسب الرؤيا فعلاً، فلا شك أن ولادته تكون آية، بيد أن ذلك لا يمكن مقارنته بمعجزة ولادة المسيح.

ولو أن امرأة ولدت ابنًا بعد بشارة في الرؤيا، ثم كان الابن بارًّا أيضًا، فمن الممكن أن تسخط عليه أمُّه حينًا وتقول لـــه إنك لم تؤد حق خدمتي. ولكن المعجزة التي رأتها مريم لم تكن معجزة عادية. فإن الملاك يأتي عذراءَ، ويبشّرها بأنها ستلد ولدًا متصفًا بصفات محددة، فتحمل به بالفعل، ثم تلد ابنًا ينال عزًّا وصيتًا غير عاديين في الدنيا. فهل من عاقل يمكن أن يصدّق بعد هذا الحدث العظيم أن أم ذلك الابن ستعدّه مجنونًا أو كاذبًا في دعواه؟ كلا، إن التي شاهدت تلك الآية العظيمة على قدرة الله تعالى لا يبقى أمامها مجال للكفر والإنكار. إذن فإن بيان الإنجيل بأن المسيح كان عاصيًا لأمه مرفوض كليةً من حيث العقل أيضًا، أما القرآن الكريم الذي يخبر أن المسيح عليه السلام نفسه قال إن الله قد جعلني ﴿برًّا بوالدتي﴾ فهو على الحق والصواب.

ثم يقول الإنجيل أن مريم كانت كافرة، ولكن القرآن الكريم يعلن عنها ﴿فتقبَّلَها ربُّها بقبول حسَن وأنبتَها نباتًا حسنًا﴾(آل عمران: ٣٨).. أي أن الله تعالى قد استجاب دعاء أم مريم، فثبَّتَ مريمَ على الخير، وكتب لها رقيًّا وعظمة غير عاديين. إذًا فالقرآن الكريم يعلن أن مريم كانت من المؤمنين الصالحين من الطراز الأول، أما الإنجيل، الذي يعلن أن مريم هي أم الإله، فيعدّها كافرة غير مؤمنة.

ثم ورد في القرآن الكريم قول الملائكة لمريم ﴿إن الله اصطفاكِ وطهّركِ واصطفاكِ على نساء العالمين﴾(آل عمران: ٤٣). فالقرآن الكريم يقول ما تقوله الفطرة، أما الإنجيل فيقول ما ترفضه الفطرة؛ إذ لا يمكن أن تكون مريم منكرة للمسيح رغم رؤية هذه الآية العظيمة. فثبت أن موقف القرآن هو الصحيح.

لقد قال الأعداء إن محمدًا (ﷺ)كان جاهلاً بالوقائع الصحيحة، فسجل في القرآن ما يخالف الواقع. ونحن نقول لهم: أيها الأغبياء، هلمّوا بأصحابكم الذين دوّنوا في رأيكم ذلك التاريخ بدقة وصحة، وقارِنوا بيانهم مع بيان القرآن الكريم. فإن الذي ترمونه بالجهل بالتاريخ يذكر الحقائق الثابتة، وأما الذين زعمتم أنهم كانوا يعرفون التاريخ الصحيح فيذكرون الأباطيل. أليس ذلك برهانًا عظيمًا على صدق محمد رسول الله ﷺ؟

لقد قال الله تعالى هنا ﴿واصطفاكِ على نساء العالمين﴾. ذلك لأن الإنجيل قد ذكَر نسوةً كثيراتٍ باسم مريم، مشيدًا بصلاحهن وطهارتهن، أما مريم التي كانت والدة المسيح فقد عرضها المسيحيون أمام العالم كعدو ومعارض للمسيح. فرد الله على زعمهم هذا، وقال إنكم تفضّلون مريم المجدلية وغيرها من النساء على مريم التي هي أمُّ عيسى، مع أن لا قيمة لتلك المريمات اللواتي تشيدون بهن إزاءها. إن مريم التي كانت أفضلهن وأقدسهن هي تلك التي كانت أمًّا للمسيح.

ثم يقول الله تعالى ﴿يا مريمُ اقنُتي لربكِ واسجُدي واركَعي مع الراكعين﴾(آل عمران: ٤٤). والراكع هو من أنعم الله عليه نعمة الإيمان الخالص. فالمعنى: يا مريم كوني مطيعة لله تعالى، وعابدة لـــه، وانضمّي إلى جماعة المؤمنين المخلصين. وهذا يعني أن القرآن يصرح أن مريم كانت من المؤمنين من الطراز الأول، أما الإنجيل فيعدّ تلك النسوة الخاطئات اللواتي كنّ يَدْهَنَّ رأس المسيح بالزيت مؤمناتٍ (لوقا ٧: ٣٧-٣٨)، بينما يعتبر مريمَ التي رأت معجزة ولادة المسيح العظيمة غير مؤمنةٍ!

والبديهي أن كل هذه الحقائق أمور عادية وليست من الغيب الخفي عن أعين الناس، ومع ذلك يقول الله تعالى بعد ذكرها ﴿ذلك مِن أنباء الغيب نوحيه إليك﴾(آل عمران: ٤٥).. أي أن هذه الأمور التي تبدو عادية قد أخفاها الإنجيل فصارت في طي الأخبار الغيبية المجهولة. يقول الإنجيل أن مريم كانت كافرة، واعتبرت المسيح مجنونًا، ولكنّا نخبرك أن كل هذا كذب وهراء. لقد كانت مريم مؤمنة قانتة ومصدّقة بالمسيح. يقول القسيس "ويري" أن القرآن لا يعرف وقائع التاريخ الصحيحة (تفسير القرآن لـــ "ويري" مجلد ١ المقدمة ص ٨)، أما القرآن فيقول: تعالوا نحن نخبركم ذلك التاريخ الذي لم يذكره الإنجيل أيضًا. فما أعظمَها من آية على صدق القرآن الكريم! فالإنجيل الذي هو كتاب المسيحيين، والذي من المفروض أن يذكر الحقائق الثابتة عن المسيح وأمه، يذكر أمورًا خاطئة، أما القرآن الكريم فيذكر عن المسيح وأمه ما هو حق وصدق. ولذلك يقول الله تعالى ﴿ذلك مِن أنباء الغيب نوحيه إليك﴾.. أي أن هذه الحقائق لم ترد في الإنجيل، بل أخفاها المسيحيون، وها نحن نكشف القناع عنها، لأن حكاية المسيح لا تكتمل بدونها.

الواقع أنه يتضح من بيان الإنجيل أن الحواريين لم يرتدعوا عن اتهام أمّ إلههم لكي يثبتوا أنهم كانوا من المقربين لدى المسيح. لقد ظلم متّى ومرقس ولوقا ويوحنا وتوما والدةَ المسيح ظلمًا عظيمًا إذ عرضوها على العالم كامرأة كافرة لا إيمان لها، ولم يفعلوا ذلك إلا لهدف واحد بأن يتظاهروا بقربهم من المسيح. ولكن القرآن قد كشف عن زيفهم مبينًا أن مريم كانت مؤمنة بارة قانتة، وأن كل ما ورد في الإنجيل خلاف ذلك كذب وافتراء ليس إلا.

لقد اتهم "ويري" القرآنَ بأنه على الباطل، ولكن القرآن الكريم قد أعلن قبل ثلاثة عشر قرنًا أنه قد ذكر الحقائق التي لا أثر لها في الإنجيل إطلاقًا، أو أن الإنجيل قد كذب في شأنها. وهذا دليل بيّنٌ على صدق القرآن وبطلان الإنجيل.

ثم يقول الله تعالى ﴿إذِ انتبذتْ مِن أهلها مكانًا شرقيًّا﴾. إن وطن مريم وزوجِها هو مدينة "الناصرة" بحسب الإنجيل (لوقا ١: ٢٦- ٢٧). ويخبرنا القرآن- لا الإنجيل- أن المعبد الذي تعلمت فيه مريم الدين كان في أورشليم. لقد تركتها أمها عند زكريا في أورشليم ليرعاها ويربّيها، بيد أننا نعرف من القرآن الكريم أن أمها لم تتركها هناك لتكون راهبة تبقى في المعبد دائمًا. ذلك لأن أم مريم قد دعت لمريم بأولاد صالحين متقين؛ وهذا يدل أنها أرادت لبنتها أن تتزوج لا أن تترهب. ويبدو أنها لما وصلت سن البلوغ والشباب أخذتها أمُّها إلى مدينتها الناصرة. إذًا فالمراد من أهلها المذكورين في قوله تعالى ﴿إذِ انتبذتْ مِن أهلها مكانًا شرقيًّا﴾ أهلُها في الناصرة، وليس أهل أورشليم. فذهبت من عند أقاربها في الناصرة إلى مكان في جهة الشرق.

ما هو هذا المكان الشرقي؟ قال المفسرون أن مريم حين رأت مشهد الملاك كانت في مدينة من المدن الشرقية (تفسير ترجمان القرآن). ويقول الإنجيل أنها شاهدت ذلك المشهد وهي مقيمة في الناصرة التي هي وطنها ووطن زوجها يوسف (لوقا ١: ٢٦-٢٧). والناصرة تقع في جهة الشمال من أورشليم لا في جهة الشرق. فلا يمكن أن يراد هنا أن مريم ذهبت من أورشليم إلى الناصرة، بل يتحدث القرآن هنا عن حدث وقع معها وهي في الناصرة. ولكن فيما يتعلق بالتاريخ

المذكور في الإنجيل فإن مريم لم تذهب إلى أي مكان شرقي، بل بقيت في مدينتها الواقعة شماليّ أورشليم.

إن تاريخ الإنجيل ليس تاريخًا موثوقًا به، ومع ذلك لا يمكننا رفضُ ما ورد فيه من أحداث إلا بناء على برهان من العقل أو النقل، إذ وقعت تلك الأحداث في فترة قريبة من زمن الإنجيل. فبما أن من معاني الشرقي في العربية: (١) ما يكون وجهُه إلى الشرق، (٢) أو ما يقع في جهة الشرق، فيمكننا بكل سهولة أن نفسر قوله تعالى ﴿إذِ انتبذتْ مِن أهلها مكانًا شرقيًّا﴾ أنها ذهبت إلى مكان كان وجهه إلى الشرق، بدون أن نرفض بيان الإنجيل.

وبقي الآن سؤال آخر وهو أن القرآن الكريم لا يذكر إلا ما هو مهمٌّ، فهو ليس كتاب قصص حتى يخوض التفاصيل التي لا داعي لها، وإنما يذكر الأمور الهامة فحسب. فالسؤال الذي يفرض نفسه هنا هو: لماذا قال الله تعالى هنا إن مريم ذهبت إلى مكان شرقي؟ يجب أن يكون في المكان الشرقي خصوصية تتعلق بحادث مريم، وإلا أصبح بيان القرآن لغوًا لا طائل تحته.

فليكن معلومًا أن للشرق أهمية كبيرة عند اليهود. لقد ورد في التوراة: "وغرس الربُّ الإلهُ جنةً في عدن شرقًا، ووضَع هناك آدمَ الذي جبَله" (التكوين ٢: ٨). فثبت أن هناك صلة وثيقة بين الشرق والجنة وبداية الخلق الإنساني بحسب التوراة.

وكان أهل بابل – التي أُخذ إليها اليهود أسارى وتأثروا من أفكارها وتقاليدها تأثرًا كبيرًا – يرون أن الشرق مبارك جدًّا، حيث كانوا يعدّون الشرق بابَ النور، وكانوا يعتقدون أن البطل – ويمكن أن تسمّيه زعيمًا ورسولاً – الذي أنقذ الناس من طوفان نوح كان من سكان الشرق. وكانوا يعتقدون أن الغرب عالم الأموات.

ويقول حزقيال النبي – الذي عاش بين البابليين – في كتابه: "ثم رفَعني روحٌ وأتى بي إلى باب بيت الرب الشرقي المتجه نحو الشرق" (حزقيال ١١: ١).. أي أن باب المعبد كان في جهة الشرق. فلأن ضوء الشمس يسطع من جهة الشرق فيبدو أنهم كانوا يجعلون أبواب المعابد في جهة الشرق تفاؤلاً وتبركًا.

وورد في الإنجيل أن المجوس جاءوا من جهة الشرق، وقالوا "إننا رأينا نجمه في المشرق وأتينا لنسجد لـــه" (متى ٢: ٢).. أي عند ولادة المسيح جاء هؤلاء بعد أن رأوا نجمًا في الشرق موقنين أن الذي جاء خبره في الصحف قد وُلد. لقد ورد في التوراة: "يبرز كوكبٌ من يعقوب" (العدد ٢٤: ١٧). كانت في هذه الفقرة نبوءة بظهور نبي، وكانت روايات اليهود تؤكد ظهوره من جهة الشرق، فقال هؤلاء المجوس الذين جاءوا من ناحية الشرق إنهم قد رأوا نجمًا، فأدركوا أن النبي الذي أكدت الأنباء ظهوره قد وُلد.

ثم ورد في العهد الجديد: "ورأيت ملاكًا آخر طالعًا من مشرق الشمس معه خَتْمُ اللهِ الحيِّ" (رؤيا يوحنا اللاهوتي ٧: ٢).

لا شك أن هذا المصدر يرجع إلى ما بعد المسيح، ولكن ما أريد تأكيده هنا هو أن الشرق كان يحظى باحترام خاص لدى اليهود والنصارى، فكانوا يجعلون أبواب معابدهم نحو الشرق، بل كان بعضهم يعبدون متجهين إلى الشرق. فيكون مفهوم هذه الآية أن مريم ذهبت للعبادة إلى معبد كان وجهه ناحية الشرق لكي تكون الجنة الأولى والبشارات العظيمة نُصبَ عينها.

علمًا أن هناك فرقًا بين مساجد المسلمين ومعابد المسيحيين. ففي كنائسهم لا يكون وجه الإمام والمأموم إلى جهة واحدة أثناء العبادة كما هو عندنا نحن المسلمين حيث يتجه الإمام والمأموم كلاهما إلى القبلة. بل إن أبواب كنائسهم تكون في جهة الشرق، فيدخل منها الإمام والمأموم، وبعد الدخول يجلسان وجهًا لوجه للعبادة، وبتعبير آخر يتجه المأموم نحو الغرب والإمام نحو الشرق.

فكما قلت إن المسيحيين كانوا يجعلون أبواب كنائسهم إلى جهة الشرق، بل الثابت أن بعض طوائفهم يعبدون متجهين نحو الشرق (شرح الزرقاني على المواهب اللدنية: الوفد الرابع عشر، وفد نصارى نجران). إني لم أتمكن من التحقيق فيما إذا كانت هذه عادة كل الطوائف المسيحية أم بعضها، ولكني أقول بكل يقين إن بعضهم كانوا يعبدون متجهين نحو الشرق. فالمراد من هذه الآية أن مريم لما شبّتْ خلق الله

في قلبها حماسًا شديدًا للدعاء، فذهبت من بيتها إلى معبد جُعل وجهه نحو الشرق تذكارًا بالجنة الأولى وببداية الخلق الإنساني اللذين لهما صلة بالشرق.

فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٨﴾

شرح الكلمات:

رُوحنا: الروح: ما به حياةُ الأنفس؛ الوحيُ؛ النبوّةُ؛ جبريلُ (الأقرب). وتسمى النبوة روحًا لأنها تَهَبُ الإنسان حياة جديدة روحانية. ويسمى جبريل روحًا لأنه يأتي من الله تعالى بكلام يهب حياة جديدة. ويسمى الوحي روحًا لأنه أيضًا يجدد الإيمان.

التفسير: أي أن مريم ألقت سترًا على الباب من أجل الدعاء في خلوة وانفراد. علمًا أنه في هذه الأيام تُتّخذ للغرف أبواب يمكن إغلاقها بسهولة، ولكن في ذلك الزمن القديم لم يكن لمثل هذه الأبواب رواج، وإنما كانوا يضعون الستائر مكان الأبواب، حتى إن القصور الملكية كانت بدون أبواب حتى الزمن العباسي. ويتضح من المباني التي بُنيت في عهد الملوك المغول أنهم كانوا يلقون الستائر على أبواب الحجرات من أجل الخلوة والانفراد. لذا فقوله تعالى ﴿فاتخذتْ من دونهم حجابًا﴾ لا يعني أن مريم ابتعدت عن القوم لتفعل شيئًا لا يمكنها أن تفعله إلا وراء الحجاب والخفاء، وإنما المراد أنها أرادت أن تعبد الله تعالى وتدعوه بهدوء في خلوة، فألقت من دونها سترًا حتى لا يراها الناس في عبادتها ودعائها.

لقد كان زكريا عليه السلام في المعبد حين تلقى البشارة بالولد، وكانت مريم أيضًا في المعبد حين تلقت من الله البشارة بالولد، حيث يقول الله تعالى إنها كانت في عبادتها وابتهالها في خلوة ﴿فأرسلْنا إليها روحَنا فتمثَّلَ لها بشرًا سويًّا﴾.. أي جاءها الملاك متمثلاً كإنسان سليم الصحة. ومثله كما يرى المرء في المنام أنه يذبح كبشًا ويكون تأويله موت ابن لـــه أو بنت أو قريب. أو يرى فأرًا وتعبيره شخص منافق. أو يرى أن سارقًا قد اقتحم بيته وتأويله الحمو والنسيب. وبالرغم أننا لا نجد في

الظاهر أي علاقة بين المنام والتأويل إلا أن هذا هو الأمر الواقع كما يعرف الجميع، لأن الله تعالى يريهم هذه الأحداث بلغة التمثل والصورة. وهنا أيضًا يشير الله تعالى إلى هذا الأمر، ويخبرنا أن الملاك تمثَّلَ لها على شكل إنسان كامل الصحة. وبتعبير آخر إن هذه الكلمات تصور لنا كيفية نـــزول الوحي على السيدة مريم. لقد قيل لرسولنا الكريم ﷺ ذات مرة: يا رسول الله، كيف ينـــزل عليك الوحي؟ فقال: أحيانًا ينـــزل عليّ كصوت الجرس، أي أشعر برنّة جرس، ثم بعده يبدأ الوحي في النـــزول؛ وأحيانًا يأتيني ملاك من ملائكة الله تعالى في شكل إنسان، ويكلّمني، وتارة يأتيني الملاك في شكل آخر. (البخاري: باب كيف كان بدء الوحي)

وهنا أيضًا يبين الله تعالى الموضوع نفسه، ويخبر أن ذلك الوحي لم يقع على سمع مريم، ولم يجرِ على لسانها، بل نـــزل عليها على شكل رؤيا وكشف. لقد رأت في الكشف أمامها ملاكًا في صورة إنسان سليم الصحة، فبلّغها كلام الله تعالى.

والحق أننا لو أمعنا النظر لوجدنا أن كلام الله تعالى هو الذي يتمثل لنا بشتى الصور عند نـــزوله. إن كلام الله تعالى لما نـــزل على مريم تمثل لها على شكل إنسان. يقول البعض أن جبريل هو الذي تمثل لها، مع أنهم لو سموه جبريل فإن الحقيقة التي بيّنّتُها تبقى كما هي، أي أن كلام الله تعالى هو الذي يتمثل بأشكال مختلفة. فمثلا إذا رأى المرء في المنام باذنجانًا فهذا يعني أن كلام الله تعالى قد اتخذ صورة باذنجان. وإذا رأى ملاكًا فمعناه أن كلام الله تعالى قد تمثل على صورة ملاك. زبدة القول إن كلام الله تعالى يتمثل عند نـــزوله على صور مختلفة.

لقد رأيتُ في الرؤيا وأنا صغير أن أحدًا ضرب كأسًا معدنيًّا، فخرج منه صوت. ثم رأيت أن الصوت أخذ في الانتشار والاتّساع كاتّساع الماء الذي يلقى فيه حجر فتتحرك أمواجه على شكل دائرة صغيرة، ثم تتسع هذه الدائرة وتتسع. فلم يزل هذا الصوت ينتشر ويتسع في الجو حتى تكوّنَ في وسط الجو بالضبط إطار فارغ. ثم رأيت أن صورة أخذتْ تتشكل في الإطار، وتحولت بالتدريج إلى صورة إنسان. ثم تحركت الصورة فجأة، وقفز منها إنسان وجاء ووقف أمامي، وقال: إني ملاك وقد بعثني الله تعالى إليك لكي أعلّمك تفسير سورة الفاتحة. فبدأ يعلّمني تفسيرها. ولما

بلغ قولَ الله تعالى ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ قال: إن كل التفاسير السابقة قد انتهت إلى هنا، ولو شئتَ علّمتُك تفسير ما بعده. فقلت: نعم، علِّمْني المزيد. فعلَّمني تفسير سورة الفاتحة كلها.

فترى هنا أن صوتًا خُلق في البداية، وتحول الصوت إطارًا، ثم ظهرت فيه صورة، ثم انقلبت الصورة إنسانًا قفز من الإطار، ووقف أمامي وكلّمني. فكل هذه الأمور تحدث على هذا النحو حيث يتخذ كلامُ الله تعالى أشكالاً مختلفة، ولا غرابة في ذلك. إن الذين لا خبرة لهم بذلك، يجدون فيها الغرابة كلها، ولكن أهل الله تعالى يعرفون أن مثل هذه التجارب تقع بكثرة. وقد مرّت مريم أيضًا بتجربة مماثلة، حيث تمثل لها كلام الله تعالى بشرًا سويًّا واقفًا أمامها. وهذا الأمر يكشف لنا حقيقة حملها أيضًا بأنه لم يكن إلا مثالاً لقول الله تعالى ﴿كُنْ فيكون﴾، وليس أن ملاكًا أو روحًا دخل فيها.

يستنتج المسيحيون من قوله تعالى ﴿رُوحَنا﴾ أن الإله قد دخل في مريم، زاعمين أن القرآن قد أيّد هنا عقيدتهم في بُنوّة المسيح. يقولـــون: ما دام الله يقول هنا أن ﴿روحَنا﴾ تمثَّلَ لمريم، فهذا يعني بكل وضوح أن الله تعالى هو الذي دخل في مريم، فثبت أن الاعتقاد بكون المسيح إلهًا أو ابن الله صحيح.

والجواب أن الإنجيل ما دام يقول أن الملاك قال لمريم "الروح القدس يحلّ عليكِ" (لوقا ١: ٣٥)، وما دام القرآن يقول، في زعمهم، أن الله نفسه دخل في مريم، فكيف صدّق القرآن الإنجيلَ يا تُرى؟ كلا، بل إنه قد فنّده، لأن الإنجيل لا يقول أن الله هو الذي دخل في مريم، بل كل ما يقوله هو إن الروح القدس نـــزل عليها.

هذا، وقد ورد في إنجيل "متّى": "وُجدتْ حُبلى من الروح القدس" (متى ١: ١٨). وهنا قد اشتبه الأمر أكثر، حيث يتضح من كلمات متّى أن الروح القدس لم يحل على مريم فحسب، بل دخل فيها.

كما ورد في إنجيل "متى": "لأن الذي حُبل به فيها هو من الروح القدس" (متى ١: ٢٠). فهنا بيّن الإنجيل المرادَ من حمل مريم من الروح القدس.. وهو أنها حملت بنطفة الروح القدس. وهنا أصبح الأمر أكثر تعقيدًا، حيث يطرح سؤال نفسه: هل دخَل

اللهُ بطنَ مريم أم الروحُ القدس؟ لأن "متى" يخبر في إنجيله أن الروح القدس اتصل بمريم ومِن نطفته وُلد المسيح.

فثبت أن زعم المسيحيين أن القرآن يصدق الإنجيل فيما قال لزعم باطل تمامًا، حيث يعلن القرآن الكريم أن الروح تمثل لمريم وبشّرها بالمولود، وليس أن الروح دخل فيها؛ أما الإنجيل فيخبر أن الحمل كان من الروح القدس لا من الله. وهذا يعني أن كلا البيانين مخالف للعقيدة المسيحية. إذ تقول عقيدتهم الشهيرة أن المسيح ابن الله، والقرآن لا يقول بذلك. وأما الإنجيل فبيانه إما يعني أن المسيح كان ابنًا للروح القدس، أو يعني أن الروح القدس كان هو الله؛ وكلا الأمرين مخالف للعقيدة المسيحية. إن القرآن الكريم لم يقل إلا أن ملاكًا تمثَّلَ لمريم وبشّرها مِن عند الله تعالى بالابن. فثبت أن زعم المسيحيين – بناء على كلمة ﴿روحنا﴾ في القرآن الكريم – أن القرآن يصدق الإنجيل لزعم باطل كلية.

قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا ١٨

التفسير: يخبرنا الله تعالى هنا أن مريم استخدمت كلمة ﴿الرحمن﴾ عندما استعاذت به، وإن إخبار الله تعالى هو الحق يقينًا. ولكن الغريب أن المسيحية تنكر صفة الله "الرحمن" أصلاً، وإنما أساس المسيحية هو أن الله ليس برحمن. ذلك لأن الله لو كان رحمانًا لغفر الذنوب، ولكن المسيحية تزعم أن الله لا يقدر على أن يغفر لأحد، فهذا يخالف عدله. وكأن الفعل الذي يقوم به كل إنسان في الدنيا، فيمدحه الناس بسببه ولا يذمّونه، فإن الله تعالى لا يمكنه القيام به. ولكنهم يعودون فيقولون أن رحمة الله اقتضت أن يغفر لعباده، فأرسل ابنَه إلى الدنيا، فصُلب عوضًا عن ذنوبهم. فلأنه حمل بنفسه ذنوب الناس كلها، وصار فداء لهم، فلا حاجة لهم إلى القيام بأي عمل آخر، لأنهم ينالون النجاة نتيجة إيمانهم بالمسيح. فثبت أن المسيحية مبنية تمامًا على أن الله تعالى ليس برحمن. ولكن القرآن الكريم يعلن أن مريم لما رأت

الملاك في هذا المشهد قالت له ﴿إني أعوذ بالرحمن منكَ إنْ كنتَ تقيًّا﴾. والرحمن هو من يُنعم عليك بدون أي عمل منك.

إن ما رأته السيدة مريم كان رؤيا، والإنسان حين يرى في الرؤيا خطرًا يخاف تمامًا كما يخاف في اليقظة إذا تعرض لخطر. فمثلاً إذا رأيتَ في الرؤيا أنك على وشك السقوط من مكان عال أصابك الذعر. ولو رأيت في المنام أنك موشك على الغرق فزِعت. ولو رأيت أنك تموت فلن تفرح أبدًا، بل ستحزن. فلا شك أن ما رأته مريم كان مشهدًا من الكشف إلا أنها خافت من الملاك الواقف أمامها بصورة إنسان فقالت لـــه ﴿إني أعوذ بالرحمن منك إن كنتَ تقيًّا﴾.

إن هذه الكلمات جاءت لبيان حالة قلب مريم وقت الحدث، حيث أخبر الله تعالى أنها خافت من هذا المشهد لدرجة أنها قالت للملاك إنْ كان فيك ورع وتقوى فإني أبتهل إلى الرحمن أن يحميني من شرك. والرحمن مَن يتفضل على المرء من دون مقابل مِن عملٍ أو جهدٍ. وهذا يعني أن الخوف قد بلغ من مريم كل مبلغ حتى توسلت إلى الله تعالى قائلة يا رب، لا تنظر إلى أعمالي، ولا تنظر هل فعلتُ شيئًا لمرضاتك أم لا، وإنما أتوسل إليك برحمانيتك أن تحميني من شرّه. لو أنها توسلت إلى الله تعالى بصفته "الرحيم" لكان مرادها يا رب قد قمت ببعض الأعمال الصالحة، فارحمني جزاء عليها. ولكنها لم تتوسل برحيمية الله تعالى، وإنما توسلت برحمانيته تعبيرًا عن كربها الشديد، وكأنها تقول يا رب، ليس بيدي أي عمل، فارحمني رغم ذلك، وادفعْ عني كربتي وبلائي.

لقد أشير بهذه الألفاظ إلى أمر آخر أيضًا، وهو أن الإنسان إذا كان في المحن، محاطًا بالخطوب والكروب، فعليه أن يدعو الله تعالى أن يا رب، ليس بيدي أي عمل، ومع ذلك أتوسل إليك برحمانيتك، وأسألك أن تُنـــزل عليّ فضلك.

وقالت لـــه مريم ﴿إنْ كنتَ تقيًّا﴾.. لأن ذكر اسم الله تعالى إنما يؤثر على من يتقي الله تعالى. فكم من مقتول يتوسل إلى قاتله باسم الله تعالى ومع ذلك لا تتولد في قلب القاتل أدنى رحمة. وهذه هي حالة القوم الذين يعارضوننا اليوم، فمهما خوّفناهم من الله تعالى لا يرتدعون عما يفعلون. فكانت مريم تعلم أن هذا إن لم

يكن صالحًا فلا جدوى من تذكيره بالله تعالى، بل إن هذا العمل سيُعَدّ إساءة إلى الله تعالى. فقالت لـــه إنني أتوسل إليك باسم الله تعالى شريطة أن تكون من أهل الصلاح والتقوى. وإلا فسوف أبتهل إلى ربي أن يحميني بنفسه من أذاك.

قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾

شرح الكلمات:

غلامًا: لقد سبق أن بيّنتُ أن الغلام يُطلَق على كل من الصغير والشاب والكهل. (راجِعْ شرح كلمات الآية رقم ٨).

زكيًّا: الزكيّ من الزكاة، أي الصلاح، ورجلٌ زكيٌّ أي زاكٍ من قوم أتقياء أزكياء. (لسان العرب)

التفسير: قال الملاك لمريم لا تخافي، إنما جئتك من عند الله تعالى لأمنحك ولدًا زكيًّا.

إن كلمة ﴿رسول﴾ تبطل مزاعم الذين يظنون أن الذي تمثل لمريم هو في الحقيقة زوجها أو زوجًا اختاره الله لها (روح المعاني). ذلك لأنه لا يقول إني جئت لأفعل بك شيئًا، بل يخبرها أني مجرد رسول من عند الله تعالى لأهب لك غلامًا زكيًّا.

قد يظنّ البعض أن قوله ﴿لأَهَبَ﴾، الذي فيه معنى العطاء، يعني أنه جاء لإقامة علاقة جنسية معها. ولكنه أيضًا ظن باطل، لأن من أساليب القرآن الكريم أنه يبين الأخبار القطعية اليقينية بكلمات يقينية كيلا يحوم حولها شك. فمثلا إذا نبّأ عن حدث سيقع في المستقبل ذكَره بصيغة الماضي وكأنه يقول اعتبِروا هذا الخبر كالحدث الذي قد وقع في الماضي. وهنا أيضًا قد أكد القرآن خبر ولادة الابن عندها بقوله ﴿لأهَب﴾.. أي لأعطي أي كُوني على يقين بولادة الابن فكأني قد أعطيتكِ إياه. والجميع يعرف أن الله تعالى هو الذي يهب الولدَ لا الملاكُ. فثبت أن

كلمة ﴿لأهَب﴾ إنما تفيد خبر ولادة الابن عندها، وليس إعطاءها الابن. إن النبأ الإلهي يكون خبر يقين، لذا فقد عُدَّ كشيء قد وُهب سلفًا، فقال جئتك بحسب وحي الله تعالى ﴿لأهب لك غلامًا زكيًّا﴾.. أي جئتكِ لأخبرك بولادة ابن عندك، وثِقي بقطعية هذا الكشف وكأنك قد أُعطيتِ المولود الموعود.

قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾

شرح الكلمات:

بَغِيًّا: البَغْيُ طلبُ تجاوُزِ الاقتصاد فيما يُتحرى. والبَغْيُ على حزبين: أحدهما محمود وهو تجاوُز العدل إلى الإحسان، والثاني مذموم وهو تجاوُز الحقّ إلى الباطل. وبغَت المرأةُ بِغاءً إذا فجَرت لتجاوُزها إلى ما ليس لها (انظر المفردات).

التفسير: إن مريم أيضًا استغربت من البشارة مثل ما استغرب زكريا ببشارة ولادة الابن عنده فقالت ﴿أنَّى يكون لي غلامٌ﴾؟

لا شك أن الغلام يعني الكهل والشاب أيضًا، ولكنه يعني هنا الولد، لأن هذا من كلام مريم، وإن ولادة الولد عندها هو الأمر الذي جعلها تتحير. فقالت كيف ألد ولدًا و لم يمسَسْني بشرٌ ولستُ امرأة فاجرة؟

ولو أننا قلنا إنها استغربت بسبب ظاهر أحوالها، وقلنا إن مشاعرها في الرؤيا كانت كمشاعرها في الظاهر، فيكون المعنى أن ولادة الابن عندها كان أمرًا مستحيلاً في الظاهر فاستغربت من هذا الخبر خلال الرؤيا أيضًا. ذلك أن المنام نوعان: فأحيانًا يكون المشهد والكلام وحدهما تحت تأثير تأويل الرؤيا، أما الأحاسيس القلبية فلا تكون تحت تأثيره. ومثاله أن يرى المرء في المنام أن ابنه قد قُتل، وأنه فرحان بقتله، مع أنه لا يفرح بقتله في الظاهر، بل يبكي ويحزن؛ ففرحته على قتل ابنه يعني أن مشاعره أيضًا كانت تحت تأثير تأويل الرؤيا لأن تأويل قتله أنه سيكون صالحًا، وسيقف حياته على خدمة الدين، وإلا لبكى و لم يفرح. وأحيانًا

يرى في المنام أن ابنه قُتل وأنه يبكي عليه، مع أنه كان ينبغي عليه أن يفرح بهذا المشهد، ولكن بكاءه في الرؤيا يدل على أن مشاعره لم تكن تحت تأثير تأويل الرؤيا، بل كانت تحت تأثير ظاهر الأحوال. إذن فمشاعر القلب أحيانًا تكون تحت تأثير تأويل الرؤيا وأحيانًا لا تكون كذلك.

ومثاله الآخر أن المرء يرى في المنام قصب السكر، فيفرح كثيرًا، في حين أن تعبير القصب الهمّ والغمّ؛ فسروره في المنام يدل على أنه لم يكن تحت تأثير تأويل الرؤيا، بل كان تحت تأثير ظاهر الأحوال، لأن المرء يفرح إذا وجد القصب، ففرح في المنام أيضًا. ولو رأى أنه بكى حينها فكان معناه أنه كان تحت تأثير تأويل منامه. إن هذه قضية معقدة ولا يفهمها إلا الذين وُهبوا علم تعبير الرؤيا.

فلو فهمنا من قولها هذا أنها قالته بتأثير ظاهر أحوالها لكان المراد أنها قالت هكذا لأن التفوه بمثل هذه الأمور أمر منكر غير مستحب، فكأنها قالت لـــه: يا ويلتى، ماذا تقول؟ متى تلد النساء بدون الرجال؟

أما لو اعتبرنا قولها هذا خاضعًا لتأثير تأويل الرؤيا لكان المراد أنها قالت هذا في دهشة واستغراب: هل بالفعل سيعاملني الله تعالى بهذا اللطف والكرم؟

وباختصار، لقد ثبت من هذه الآية بكل جلاء أن السيدة مريم قد فهمت من ذلك أنها ستلد ولدًا بدون زواج وقبل الزواج، لأن قولها ﴿ولم يمسَسْني بشر﴾ يدل أنها قد فهمتْ من هذه الرؤيا أنها ستُرزق الولد بعد هذه الرؤيا وقبل الزواج، وإلا فلا معنى لأن تنفي مريم أية علاقة جنسية في الماضي.

ثم إن قولها ﴿ولم أكُ بغيًّا﴾ أيضًا يدعم هذا المعنى حيث إنها تنفي به أي علاقات غير شرعية مع أحد في الماضي، بينما كان قولها ﴿ولم يمسَسْني بشرٌ﴾ كان نفيًا لعلاقة شرعية في الماضي؛ وليس في قولها أي ذكر للزواج أو عدمه في المستقبل. وهذا يدل أنها لم تنفِ ولادة الابن عندها في المستقبل لكونها منذورة في سبيل الله تعالى، وإنما نفت ولادة الابن عندها نظرًا إلى ماضيها الذي كان من المحال أن تُرزق فيه الولد. لو كان المستقبل في نظرها لقالت إن زواجي مستحيل فكيف أرزق الولد، أو لم تتعجب إطلاقًا من وعد الولد لأن احتمال زواجها كان أمرًا واردًا.